العرب
الأحد 2021/10/03
السنة 44 العدد 12198

صورة واقعية مقربة من قلب الصراع

الإجهاض في أميركا قضية تخفي الكثير من الصراعات

«روي في ويد» فيلم عن تشريعات الإجهاض التي هزّت المجتمع الأميركي

لا تتوقف الأفلام التي تتناول قضية العنصرية في أميركا عند شكل التصادم الظاهر بين البيض والسود، والممارسات العنصرية المعلنة أو حتى الخفية، فهناك قضايا أخرى تجمع بين الطرفين وتفرقهما في الآراء في نفس الوقت، يمكن من خلالها معالجة العنصرية، مثل قضية الإجهاض التي يعالجها ببراعة فيلم "روي في ويد".

طاهر علوان
كاتب عراقي

لا شك أن أية نظرة إلى ما تم توثيقه سينمائيا من أحداث ترتبط بانتفاضات الحريات المدنية في الولايات المتحدة في الستينات والسبعينات بشكل خاص، سوف تحيلنا إلى صورة مجتمع عصفت به توجهات الساسة والمشرعين من جهة، ومن جهة أخرى حركات الحريات المدنية وجماعات الدفاع عن الحقوق الإنسانية الأساسية والمناوئة للتمييز والعنصرية.

ولأن الظاهرة متجسمة ومتفشية على نطاق واسع ولها آثارها المعقدة التي لا تزال ماثلة حتى الساعة فقد تباينت التجارب السينمائية في تجسيدها، ومن ذلك ما نشاهده في فيلم "روي في ويد" للمخرجين وكاتبي السيناريو نك لويب وكاتي ألين اللذين قدما صورة مجتمع تناحرت فيه الأهواء والدوافع وتقاطعت فيه القوانين إلى درجة تأجيج رفض عارم.

قضية الإجهاض

لعل ظاهرة الإجهاض من الظواهر التي كانت ولا تزال إحدى الإشكاليات المعقدة في أميركا، حيث تشير الإحصائيات إلى أنه في كل 30 ثانية هنالك جنين يتم قتله بعملية إجهاض، وأن هنالك أكثر من 60 مليون حالة إجهاض منذ صدور التشريع الذي صدر في مطلع السبعينات والذي يبيح هذه العملية.

تتجه المعالجة السينمائية في هذا الفيلم إلى ملامسة شتى التيارات الدينية والحزبية والتشريعية وكيف كانت تنظر إلى عملية الإجهاض، وكأننا إزاء نوع من الفيلم الوثائقي/ الدرامي الواقعي، إذ ينطلق من الحياة اليومية للطبيب بيرنارد (وهو نفسه مخرج الفيلم وكاتب السيناريو) الذي ينحدر من أسرة يهودية وهو الذي بسبب عجزه عن إيجاد حل لحمل صديقته منه يلجأ إلى إجهاضها، ومنذ تلك اللحظة يقرر أن يصبح طبيبا وأن يتخصص بعمليات الإجهاض.

وبهذا يلعب دورا في الدفاع عن حق المرأة في التخلص من الجنين من خلال ترؤسه جمعية مختصة، ومن ثم ممارسته عمليات الإجهاض سرّا وعلنا ودفاعه المستميت وجمعه ثروة من عشرات الآلاف من عمليات الإجهاض اليومية التي كان يقوم بها، بل إننا سوف نذهب مع أحداث الفيلم إلى ما هو أبعد من خلال مداهمة عيادات إجهاض بعضها يمارس عمله بشكل سرّي داخل فنادق الدرجة الأولى حيث تلقى الأجنة أكواما من الأنسجة والدماء في حاويات معدنية.

يلاحق المخرجان الظاهرة من زوايا سردية متعددة وبدا واضحا مدى حرصهما على الإحاطة بها من كل جانب، حيث تدخل الجماعات الدينية من يهود ومسيحيين كاثوليك إلى تيارات إلحادية ويسارية وجماعات الحريات الفردية ولكل منها موقفه ووجهة نظره الخاصة في هذه القضية الشائكة والمعقدة.

في إطار التنويع في بناء القصة السينمائية يلجأ المخرج إلى ما يعرف بسينما المرافعات والمحاكم، حيث تجري سجالات بين من هم مع ومن هم ضد، ومنهم المحافظون مثل وارين بيرغر الذي أدى دوره الممثل المخضرم جون فويت الذي يساعده في إنجاز المهمة الممثل كوربن برينسين الذي أدى دور القاضي بلاكمان، بالإضافة إلى روبرت دافي الذي أدى دور روبرت بريتان والممثلة ستيسي داش في دور ميلدريد جيفرسون، وهي أول طبيبة أميركية جرّاحة من أصول أفريقية تتخرج من جامعة هارفارد وهي من أشد المعارضين لتشريع قانون يبيح عمليات الإجهاض.

في قلب الصراع

في ذروة المواجهة في مقاربة الظاهرة يصف الطبيب بيرنارد خطوات عمليات الإجهاض، بما في ذلك تهشيم جمجمة الجنين واستخراجه من الرحم قطعة قطعة، وفي مقابل تلك الصورة البشعة التي تهز الوجدان هنالك الصورة التبسيطية وهي عجز الأمهات عن توفير فرص حياة سليمة لأولئك الأطفال، ثم وجهة نظر أخرى وهي النظرة الفلسفية والإنسانية التي تفند مقولة أن المرأة لها الحرية الكاملة في التحكم بجسدها بينما الذي تهشمه حياته في جسد آخر.

لا تكاد تلمس أن الخطوط الدرامية في هذا الفيلم قد انقسمت إلى قوتين متكافئتين من خلال شخصيات متعارضة فيما بينها، بل إن الظاهرة تتسع إلى ما هو أبعد، إلى مساحة بشرية عريضة اشتغل عليها المخرجان من منطلق أنها ليست قضية فردية بل قضية رأي عام، ولهذا يتجه المخرجان إلى التنقل بين مستويات متعددة للرأي العام، مما مهد لمجمل ردود الأفعال بما في ذلك مواقف الرئيس ريتشارد نيكسون الذي شهد عهده ذروة ذلك الجدل والصراعات بين المؤيدين والمعارضين.

> الخطوط الدرامية في هذا الفيلم انقسمت إلى قوتين متكافئتين من خلال شخصيات متعارضة فيما بينها

أما من ناحية الشكل الصوري فقد نجحت المعالجة الفيلمية في تقريبنا من شخصيات وأحداث ومتغيرات شهدتها تلك الحقبة، وعشنا مع الشخصيات أهواءها وتقلباتها وأنانيتها، في الوقت الذي كانت فيه الخلافات والصراعات تعصف بالمشهد كله وتقود إلى جدل لا ينتهي، وخاصة مع تباين مواقف الولايات وقوانينها الخاصة بها وهي قضية أخرى تم تسليط الضوء عليها.

الفيلم برمته ما هو إلا صورة مقربة واقعية نجح في رسمها ثلة من الممثلين المتميزين الذين نقلونا إلى قلب الصراع المتفجر الذي كان سائدا في ذلك الحين، والذي قاد إلى تظاهرات حاشدة وتكريس وسائل لكل طرف للتعبير عن مواقفه ضد الطرف الآخر، فضلا عن بروز تيار خطير وشديد التطرف والعنصرية وهو الذي كان ينادي بحق الإجهاض للنساء، ولكن وسط مجتمعات السود وذلك للحد من إنجابهم في مقابل تشجيع الإنجاب في صفوف البيض.

الزمن يتلاعب بنا لكننا نتسامح معه على الشاشات

ليس هنالك تحد للكائن البشري أقوى من تحدّي الزمن، فالنهايات الصعبة كلها مرتبطة بقوة الزمن وحضوره وتمدده وحركيته التي لا تنتهي.

قاربت الشاشات الزمن طويلا وتشظى وتمدد إلى أزمنة متعددة، ومن ذلك ما يعرف بالزمن الفيلمي وزمن المشهد وزمن اللقطة والزمن المستقطع والزمن النفسي وصولا إلى ملامسة تلك النزعة البشرية في العودة بالزمن إلى الوراء والحيلولة دون تقدمه وتحوله إلى قوة قدرية صارمة تسير باتجاه واحد وتوصل الشخصية إلى النهايات الحتمية وما يعرف بالقضاء والقدر.

التسليم بالزمن الأرضي لا يتناسب مع المناورة والتمرد اللذين يشهدهما الزمن السينمائي، الزمن في الحياة الواقعية يسير خطيا وإلى نهاياته بينما في الفيلم الزمن متعرج ومتعدد المستويات والطبقات وليس بالضرورة أن يسير باتجاه واحد ما عدا طول مدة الفيلم أو الزمن الذي نمضيه في المشاهدة.

ولا يوجد ما هو أكثر إرباكا من التلاعب بالزمن بما ينعكس على تسلسل الأحداث ومضي القصة السينمائية في مطلع السبعينات والذي يبيح هذه العملية.

تتجه المعالجة السينمائية في هذا الفيلم إلى ملامسة شتى التيارات الدينية والحزبية والتشريعية وكيف كانت تنظر إلى عملية الإجهاض، وكأننا إزاء نوع من الفيلم الوثائقي/ الدرامي الواقعي، إذ ينطلق من الحياة اليومية للطبيب بيرنارد (وهو نفسه مخرج الفيلم وكاتب السيناريو) الذي ينحدر من أسرة يهودية وهو الذي بسبب عجزه عن إيجاد حل لحمل صديقته منه يلجأ إلى إجهاضها، ومنذ تلك اللحظة يقرر أن يصبح طبيبا وأن يتخصص بعمليات الإجهاض.

وبهذا يلعب دورا في الدفاع عن حق المرأة في التخلص من الجنين من خلال ترؤسه جمعية مختصة، ومن ثم ممارسته عمليات الإجهاض سرّا وعلنا ودفاعه المستميت وجمعه ثروة من عشرات الآلاف من عمليات الإجهاض اليومية التي كان يقوم بها، بل إننا سوف نذهب مع أحداث الفيلم إلى ما هو أبعد من خلال مداهمة عيادات إجهاض بعضها يمارس عمله بشكل سرّي داخل فنادق الدرجة الأولى حيث تلقى الأجنة أكواما من الأنسجة والدماء في حاويات معدنية.

يلاحق المخرجان الظاهرة من زوايا سردية متعددة وبدا واضحا مدى حرصهما على الإحاطة بها من كل جانب، حيث تدخل الجماعات الدينية من يهود ومسيحيين كاثوليك إلى تيارات إلحادية ويسارية وجماعات الحريات الفردية ولكل منها موقفه ووجهة نظره الخاصة في هذه القضية الشائكة والمعقدة.

في إطار التنويع في بناء القصة السينمائية يلجأ المخرج إلى ما يعرف بسينما المرافعات والمحاكم، حيث تجري سجالات بين من هم مع ومن هم ضد، ومنهم المحافظون مثل وارين بيرغر الذي أدى دوره الممثل المخضرم جون فويت الذي يساعده في إنجاز المهمة الممثل كوربن برينسين الذي أدى دور القاضي بلاكمان، بالإضافة إلى روبرت دافي الذي أدى دور روبرت بريتان والممثلة ستيسي داش في دور ميلدريد جيفرسون، وهي أول طبيبة أميركية جرّاحة من أصول أفريقية تتخرج من جامعة هارفارد وهي من أشد المعارضين لتشريع قانون يبيح عمليات الإجهاض.

في قلب الصراع

في ذروة المواجهة في مقاربة الظاهرة يصف الطبيب بيرنارد خطوات عمليات الإجهاض، بما في ذلك تهشيم جمجمة الجنين واستخراجه من الرحم قطعة قطعة، وفي مقابل تلك الصورة البشعة التي تهز الوجدان هنالك الصورة التبسيطية وهي عجز الأمهات عن توفير فرص حياة سليمة لأولئك الأطفال، ثم وجهة نظر أخرى وهي النظرة الفلسفية والإنسانية التي تفند مقولة أن المرأة لها الحرية الكاملة في التحكم بجسدها بينما الذي تهشمه حياته في جسد آخر.

لا تكاد تلمس أن الخطوط الدرامية في هذا الفيلم قد انقسمت إلى قوتين متكافئتين من خلال شخصيات متعارضة فيما بينها، بل إن الظاهرة تتسع إلى ما هو أبعد، إلى مساحة بشرية عريضة اشتغل عليها المخرجان من منطلق أنها ليست قضية فردية بل قضية رأي عام، ولهذا يتجه المخرجان إلى التنقل بين مستويات متعددة للرأي العام، مما مهد لمجمل ردود الأفعال بما في ذلك مواقف الرئيس ريتشارد نيكسون الذي شهد عهده ذروة ذلك الجدل والصراعات بين المؤيدين والمعارضين.

> الخطوط الدرامية في هذا الفيلم انقسمت إلى قوتين متكافئتين من خلال شخصيات متعارضة فيما بينها

أما من ناحية الشكل الصوري فقد نجحت المعالجة الفيلمية في تقريبنا من شخصيات وأحداث ومتغيرات شهدتها تلك الحقبة، وعشنا مع الشخصيات أهواءها وتقلباتها وأنانيتها، في الوقت الذي كانت فيه الخلافات والصراعات تعصف بالمشهد كله وتقود إلى جدل لا ينتهي، وخاصة مع تباين مواقف الولايات وقوانينها الخاصة بها وهي قضية أخرى تم تسليط الضوء عليها.

الفيلم برمته ما هو إلا صورة مقربة واقعية نجح في رسمها ثلة من الممثلين المتميزين الذين نقلونا إلى قلب الصراع المتفجر الذي كان سائدا في ذلك الحين، والذي قاد إلى تظاهرات حاشدة وتكريس وسائل لكل طرف للتعبير عن مواقفه ضد الطرف الآخر، فضلا عن بروز تيار خطير وشديد التطرف والعنصرية وهو الذي كان ينادي بحق الإجهاض للنساء، ولكن وسط مجتمعات السود وذلك للحد من إنجابهم في مقابل تشجيع الإنجاب في صفوف البيض.

نوافذ سينمائية.. الفردية وعزلة الذات في تجارب المخرجين

من منطلق كون فن الفيلم نوعا من الفن الجماعي الذي يحشد ممثلين من أعمار ونزعات وتوجهات وأهداف مختلفة، فقد صار ذلك عنوانا لمتعة خالصة لجمهور عريض اعتاد على نظام النجوم الذي يقدم في كل مرة طائفة من الممثلين البارعين والمختلفين.

لكننا خلال ذلك لا نكاد نتوقف كثيرا عن القصدية التي يلجأ إليها مخرجون آخرون وهم يجعلوننا وجها لوجه مع الذات المعزولة وخاصة في إطار نسقية الممثل الواحد الذي عليه أن يملأ وقتنا ببراعة وأن يقدم أقصى ما عنده من قدرات تعبيرية خلال أحداث الفيلم، وهو ما سوف نلاحظه في تلك البراعة القائمة على الموازنة الدقيقة بين الحوارات الخارجية والديالوغ الداخلي وتيار اللاوعي والأفعال المصاحبة المسؤولة عن موازنة كل ذلك في نسقية تعبيرية متناغمة وواحدة.

هل نتذكر القصة الطويلة أو النوفيلا الشائعة والأكثر انتشارا التي كتبها فرانز كافكا بعنوان "المسخ" ونشرت عام 1915، لنشاهدها بعد أكثر من مئة عام من خلال فيلم يحمل الاسم نفسه للمخرج كريس سوانتون؟ إنه البطل غريغور سامسا الذي يفيق وقد انمسخ إلى حشرة ضخمة وعليه أن يلملم مشاعره الأكثر ذاتية من أجل أن يخرج من المأزق الذي هو فيه.

ربما يكون هذا المثال هو الأكثر قسوة وقوة تعبيرية عن الذات المعزولة التي تقع أسيرة أسباب وجودها الذاتي وشبه انفصالها عن المجتمع الذي تعيش فيه، وبالتالي تبحث عن خلاص ما وسط صعوبات جمة تعترضها أثناء محاولة التفاعل مع المحيط من جراء الانمساخ والعزلة القاتلة، وفي ذلك معالجة سينمائية تحمل الكثير من إشكاليات الوجود المعزول المرتبط بالشخصية وهي تبحث لنفسها عن أفق ما.

في المقابل سوف نتذكر الممثل توم هانكس في فيلم "المنبوذ" (2000)، لكنه فيلم يجسد محنة الشخصية بعد الكارثة وخاصة بعد حادثة سقوط طائرة، وهنالك أيضا أفلام مثل "القمر" (2009) و"127 ساعة" (2007) و"كل شيء مفقود" (2013) و"المدفون" (2000) و"الركض الصامت" (1972) و"كارغو" (2018) و"الحارس (2001) وغيرها كثير.

يطرح فيلم "أوكسجي" موضوعا مكملا لمثل هذه القصص الإشكالية، حيث يقدم حبكة ممتعة بإخراج متقن عن النزاع من أجل البقاء حتى الرمق الأخير. والفيلم الذي أخرجه الفرنسي ألكسندر آجا من نمط الأعمال المعتمدة على البطل الواحد، وهو الشابة ليز التي تجد نفسها بعد استيقاظها من سبات عميق وحيدة داخل كبسولة فضائية.

هذا الفيلم المصنوع بعناية وحرفية عالية تقوده من بدايته إلى نهايته شخصية واحدة وهي ليز هانسين (الممثلة ميلاني لورون) التي تبدأ المشاهد الأولى لها وهي تحاول أن تخرج من غشاء سميك يغلفها بالكامل وبالكاد تتمكن من إخراج وجهها لكي تتنفّس، لكنها سوف تكون مقيّدة ومضطجعة في مكان ما محاط بالشاشات والبيانات الرقمية.

إنها ببساطة لا تتذكّر ولا تعلم من هي؟ ولماذا هي محتجزة بهذه الطريقة في ذلك الصندوق الرقمي المتطور أو تلك الكابينة الرقمية؟ فتشعر بالحيرة والهلع، وأول ما سيصدمها أنه لم يبق هناك الكثير من الأوكسجين لإبقائها على قيد الحياة وأن وسيلتها الوحيدة هي الحوار مع روبوت صوتي هو ليو، لكنه يعجز عن الإجابة عن كل أسئلتها.

ينجح المخرج وقبله كاتبة السيناريو كريستي ليبلانك في زجّنا في ذلك التداخل في البناء السردي المتقن القائم على فكرة حلّ لغز الوجود الذاتي المجهول والمحاط بالعديد من الأسئلة، لاسيما وأن الروبوت ليو سوف يكشف عن صور ليز في مراحل مختلفة من حياتها، وبذلك نغرق في احتمالات شتى تتعلّق بمصير ليز، أهي مختطفة وهو ما ظنته للوهلة الأولى؟ هل هي تحت الأرض؟ هل هي أسيرة مؤامرة؟

> هناك أفلام محبوكة ببراعة يجعلنا مخرجوها وجها لوجه مع الذات المعزولة، وخاصة في إطار نسقية الممثل الواحد

في فيلم "بين النجوم" سوف يعيد الإنسان المغامر عبر الفضاء سيرته الأولى محتارا في أمر الكواكب والمجرات فيما هو يخوض المهمة منفردا، وهو الذي اندفع إلى المضي في المهمة إلى النهاية وكأنه اندمج عقليا وجسميا مع المجرات وصار مجرّد ذرّة هائمة في الفضاء الفسيح.

ربما نكون أقرب إلى قصيدة عميقة وحس إنساني مؤثر، خاصة مع اعتراف الأب بتقصيره تجاه ابنه وأمه وانشغاله بأبحاثه في الفضاء، وهو اعتراف متأخر للغاية زاد الابن إحباطا ومع ذلك جدد حبه لوالده.

واقعيا لم تكن القصة السينمائية حافلة بتحولات كثيرة ولا بالتصعيد الدرامي الكافي، ولهذا تم التركيز على الشكل السينمائي وتعميق دلالات وجماليات الصورة، فضلا عن السرد الفيلمي القائم على استذكارات الماضي.

وهناك مثال آخر هو فيلم "العريشة" حيث الشخصية الرئيسية في هذا الفيلم هي إيثان (الممثل درو ماتيوز)، وبمجرد النظر إلى هذا الشاب شارد النظرات والمنطوي على نفسه ستستنتج أنك أمام شخصية إشكالية. على أن بناء شخصية إيثان يُختصر في عزلته النفسية ووحدته وشعوره بالقلق وهو ما يتسرّب حتى إلى علاقته بشقيقه شين، وهو في ذلك يحاول إشراكه في ذكريات بعيدة ثم محاولة إشراكه في اكتشاف ذلك الكائن. لكنه لن يجد لدى شقيقه حماسا لذلك تتفاقم عزلته.

* ط. ع

البحث عن الخلاص وسط العزلة